

الفصل الرابع

الطبيعة الإنسانية والتربية

مفهوم الطبيعة الإنسانية :

من الأهمية بمكان أن يتحدد مفهوم الطبيعة الإنسانية وحقيقتها في أذهان المشتغلين بالتربية والتدريس قبل أن يبذلوا أية جهود وضع أهدافهم التربوية ، أو تخطيط مناهجهم ، من أجل تحقيق تلك الأهداف .

ولقد اختلف رجال الفكر فيما نادوا به من تفسيرات متباينة عن الطبيعة البشرية ، واستندت بعض هذه التفسيرات إلى أمور غيبية ، وجاء البعض الآخر خاطئاً في أساسه ، بينما وجدت تفسيرات ناقصة نظرت إلى الطبيعة لإنسانية من زاوية واحدة .

والاختلاف الأساسي القائم بين هذه التفسيرات يدور محوره ، حول مدى ثبات الطبيعة الإنسانية وغطريتها أو في عبارة أخرى حول أثر كل من الوراثة والبيئة في تكوين الطبيعة الإنسانية للفرد .

وتحديد موقفنا من هذا الاختلاف في الرأي أمر جوهري ، إذ على ضوء ما نعتقده بشأن الطبيعة الإنسانية يمكننا تخطيط النشاط التربوي اللازم من حيث أهدافه ومناهجه ، فإذا أخذنا بالرأي القائل بأن الطبيعة الإنسانية فطرية ، كان مجال العمل التربوي أمامنا ضيقاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً يذكر لتعديل تلك الطبيعة ، ولا داعي حينئذ لبذل جهد ضائع مادام كل إنسان قد تقرر مستقبله قبل أن يدخل غمار الحياة . وعلى العكس من ذلك ، فإذا كنا من مؤيدي الرأي القائل بأن الطبيعة الإنسانية ليست فطرية بل نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته الاجتماعية التي يحيا فيها في عالم الواقع ، كان الباب أمامنا مفتوحاً على مصراعيه لتخطيط مناهجنا

التربوية التي تدفع بنمو الإنسان ، والتي تشكل طبيعته لخيره وخير المجتمع الذي يعيش فيه •

أولا : النظرة الفطرية للفرد

كان المدخل الخاطيء في تفسير الطبيعة الإنسانية قديماً هو قيام ذلك التفسير على أساس نظرة ثنائية للإنسان • وقد نادى أفلاطون بتلك الثنائية فاعتبر الإنسان شيعين : عقلا وجسما ، ينتمى كل منهما إلى عالم مختلف فالعقل ليست له حدود مكانية ، وهو أقرب الى الروح التي تعيش في عالم مستقر ، ولذلك فهو أسمى من الجسم الذى يتصف بالاضطراب والتغير ، شأنه شأن العالم الواقعى العملى المادى الذى نعيش فيه ونعتمد فيه على حواسنا •

وترى هذه النظرة أن الروح قد وجدت في العالم المثالى قبل أن تهبط إلى الجسم • وهناك كانت تعرف كل الحقائق والمثل العليا من حق وخير وجمال ، إلا أنها بارتباطها بالجسم نسيت كل ذلك ، ولا سبيل إلى استرجاع تلك المعرفة الا بواسطة العقل ، ولهذا أيضاً فقد اعتبرت العلوم النظرية المتصلة بالعقل كالفلسفة والمنطق والرياضيات أسمى من الفنون الميكانيكية التي تتطلب حركة ومهارة جسمية ، وأطلق على تلك العلوم النظرية اسم « الفنون الحرة » •

ووفقاً لهذه النظرية أيضاً كان البحث والتأمل العقلى هو السبيل إلى انوصول الى الحقائق والتعميم واليقين ، بنتائج العمل كلية مطلقة • وهذا في رأيهم على العكس من نتائج التجربة أو الخبرة فهي جزئية لا تبلغ بها يقينا أو تعميماً •

ويختلف التجريبيون حديثاً في مفهومهم للخبرة عن مفهوم الإغريق القدماء لها فهي في نظر التجريبيين مرتبطة بالتفكير وتتجمع جزئياً معاً لتكون كلا مترابطة شاملاً يزداد عمقا واساعاً بازدياد التجربة أو الخبرة •

وقد أعلى من شأن الخبرة أيضا ما أقره علم النفس حديثاً من أن الإنسان يحيا دائما في تفاعل مع بيئته تفاعلا إيجابيا يثمر تعبيرات في كلا الإنسان وبيئته .

ويبدو أن هذا التفسير الذى أدلى به أفلاطون عن الطبيعة الإنسانية كان مرتبطا بمصلحة طبقية ألحت على أفلاطون نفسه ليحميها ، فقد كان أفلاطون من طبقة الأشراف في مجتمعه وكان تأكيد وجود طبقات فطرية ، واحدة عقلية لها الأعمال الرفيعة ، وأخرى جسمية شهوية لها الأعمال الدنيا ، يعين على الإبقاء على الثنائية الاجتماعية القائمة في زمنه .

والتربية وفقا لهذه النظرية أيضا تربية عقلية تمكن العقل من الاتصال بعالم الروح ومثله العليا ، وهى تنمية للمقدرات الكامنة من الداخل دون اعتبار للبيئة الاجتماعية التى يحيا فيها الفرد ويعيش . أما عن الجسم وأنشطته فهى أمور ينبغى أن ينصرف اهتمام التربية عنها . بل فوق هذا ، فإن أساليب التربية ينبغى أن تعمل على إخضاع الجسم ولو بالعقاب حتى يفسح المجال أمام العقل لممارسة نشاطه في استقبال المعرفة التى تلقى عليه في إصغاء منه وطاعة ولو كانت تلك المعلومات فوق مستواه .

التفسيرات المختلفة للطبيعة الفطرية

على أن القول بالطبيعة الفطرية للفرد المنفصلة عن المؤثرات البيئية الاجتماعية لم تتضمن تفصيلات واحدة مشتركة بين التفسيرات المختلفة للطبيعة الإنسانية التى تضمنتها هذه النظرة . فيرى أحد هذه التفسيرات أن طبيعة الفرد واحدة رغم اختلاف الثقافات ، وأن العقل هو الصفة المشتركة بين الإنسان ، ولهذا ينبغى أن تكون التربية واحدة في مناهجها بالنسبة للجميع ، وأن مهمة التربية تنمية العقل بواسطة التراث الثقافى .

وتفسير ثان يرى أن الطبيعة الفطرية للانسان تتمثل في عقله بما فيه من ملكات مستقل كل منها عن الملكات الأخرى ، فملكة للذاكرة وأخرى للتفكير وثالثة للتخيل وغيرها من الملكات ، ووظيفة التربية أن تدرب كل من هذه الملكات على حدة بما يناسبها من مواد دراسية .

وتفسير ثالث يرى أن الطبيعة الفطرية للانسان تتمثل في سلبية عقل الإنسان ، فهو صفحة بيضاء يمكن ملؤها بما يعين للكبار من قيم الماضي وحقايقه . وهكذا يعزل الطفل عن الحاضر والمستقبل ولا يعترف له بكيانه الحيوى . ويذكر اسم الفيلسوف « جون لوك » مرتبطاً بهذا التفسير ، ويبدو أيضاً أن هذا التفسير الذى نادى به جون لوك فى القرن السابع عشر فى انجلترا كان يهدف الى تدعيم نظام الحكم الملكى المطلق فى عصره .

وتفسير رابع نادى بالطبيعة الفطرية الشريرة للانسان وقد ارتبط به بعض رجال الدين المسيحي حين نادوا بخطيئة الإنسان بعد « الزلة الكبرى » لآدم ، وضرورة السمو بالروح عن طريق التقشف والحرمان واتباع أساليب القهر والعقاب لإخضاع الجسم وإذلاله حتى لا يعوق الروح عن السمو المنشود . ويرتبط بهذا التفسير اسم الفيلسوف « هوبز » فى القرن ١٦ - ١٧ . وقد نادى بضرورة استخدام الأساليب الاستبدادية التحكيمية للحد من شر الإنسان . فلقد بلغ أهل عصره فى انجلترا درجة شديدة من الفوضى والاضطراب جعلت هوبز يرفع صوته منادياً بذلك التفسير للطبيعة الإنسانية ولعله فى مناداته بالطبيعة الإنسانية الخاطئة كان يؤيد من طرف خفى نظام الحكم الملكى المطلق الذى كان قائماً فى ذلك الزمان والذى دفع الناس إلى التمرد عليه .

وتفسير خامس يرتبط به اسم « روسو » فى القرن الثامن عشر ويعبر عنه أحياناً بالنظرة الطبيعية للانسان ومضمونه على العكس من التفسير السابق أن طبيعة الفرد خيرة لأنها من صنع خالق الطبيعة . وأن هذه

الطبيعة الخيرة لا يفسدها سوى القوانين والالتزامات الاجتماعية . ولهذا فإنه إذا أردنا نموا سليما للانسان ينبغي حماية نزعاته الفطرية الطبيعية من التدخل من جانب المجتمع وتنظيماته ويتحقق ذلك باتاحة فرص النمو لميوله الطبيعية وتجنب التعليم المنظم . فرغبات الطفل وميوله ينبغي أن تكون الأساس في التعلم ، هذا بالإضافة إلى أن التعليم يتم عن طريق النتائج الطبيعية لأفعال الفرد ، وهو الأمر الذي يجعل التعليم في الواقع محدوداً وقد يكون مهلكاً . وتنمية الطفل هنا تتم عن طريق اتصال الإنسان بالطبيعة بواسطة حواسه اتصالاً مباشراً ، ولهذا نادى روسو بضرورة تنمية الحواس وتأجيل تعلم القراءة إلى سن متأخرة ولقد ظهر هذا التفسير احتجاجاً على الفساد والانحلال الذي ساد في تلك الآونة والذي دفع روسو الى محاولة فصل النشء في المجتمع حماية لهم من فساد المجتمع . وكان لهذا التفسير - رغم عدم إشارته الى المجتمع كعامل مؤثر في تكوين الطبيعة الانسانية - فضل في لفت الأنظار الى ضرورة مراعاة خصائص الطفل في العملية التعليمية .

وتفسير سادس للطبيعة الإنسانية يرى وجود قوى فطرية منعزلة تسبب قيام الانسان بأفعاله المختلفة وأطلق على تلك القوى اسم « الغرائز » كحب الذات والغريزة الجنسية وغيرها . ومن المعروف أن أصحاب هذا التفسير لم يتفقوا فيما بينهم على عدد هذه الغرائز .

ولقد كان للمفهم الخاطيء لنظرية « داروين » في النشوء والارتقاء أثر في ظهور هذا التفسير للطبيعة الإنسانية ، ذلك أن القول بأن الإنسان أعلى الحلقات في سلم التطور قد أوحى لأصحاب هذا التفسير بالتشابه بين غرائز الإنسان وغرائز الحيوانات الدنيا . واعتبر أن غرائز الإنسان ثابتة لا تتعدل وأن أفعال الانسان تتكرر هي نفسها بتأثير القوى الغريزية اندافعة من ورائها ، وهكذا تصبح للوراثة اليد العليا في تحديد حاضر الإنسان ومستقبله . ولقد حرم السلوكيون أصحاب هذه النظرية الإنسان من عقله ، واعتبروا سلوكه مجموعة من الاستجابات للمثيرات

الكائنة ، بالإضافة إلى مجموعة من الأفعال المنعكسة ، مع إمكان إيجاد
ترابط بين تلك الأفعال المختلفة ، ولهذا كان تفسيرهم للطبيعة الإنسانية
قائماً على أساس نظرة جزئية اتخذت أساساً لتفسير شامل ، فجاء التفسير
قاصراً .

والواقع أن الإنسان كائن في حالة نشاط مستمر ما دام حياً ، وأن
أفعاله التي يقوم بها لا تتكرر هي ذاتها ، وذلك لتغير ظروف البيئة التي
يحيا فيها الإنسان ، ثم إن سلوك الإنسان لو كان غريزياً لثشابه ذلك
السلوك بين الأفراد جميعاً ، وهو الأمر الذي يتعارض مع ما هو قائم فعلاً
من اختلاف السلوك باختلاف المجتمعات .

على أن التطور الذي أشار إليه « داروين » حين اعتبر الإنسان
أعلى حلقات في سلم التطور لم يعن أبداً أن الانسان وقد وصل إلى ما هو
عليه ، قد توقف عند ذلك ، بل كان يعنى أن الأنواع الحيوانية ليست جامدة ،
وأنها متطورة تسعى للتكيف مع ظروف الحياة المحيطة بها . فالخبرات
التي يكتسبها الإنسان تعينه على التطور أى النمو . وهكذا تصبح التربية
عملية اكتساب خبرات كما نادى بذلك البراجماتيون .

هذه التفسيرات السابقة للطبيعة الإنسانية يلاحظ أنها تقوم على
أسس غيبية أو فرضية . ولكن ما لبث أن ظهر تفسير آخر يعتبر الطبيعة
الإنسانية طبيعة بيولوجية ، وهو تفسير لنشاط الإنسان على ضوء تكوينه
البيولوجى الذى يحدد لنا حاجات الفرد وميوله . وهذا التفسير ولو أنه
أغفل أيضاً كغيره من التفسيرات السابقة أثر المجتمع في تشكيل الطبيعة
الإنسانية ، وأبرز فطرية طبيعية ، إلا أنه كان تفسيراً علمياً اتخذ أساسه
من عالم الواقع الفعلى .

هذا ويجمع بين التفسيرين الأخيرين النظر إلى الإنسان باعتباره
حيوان طبيعى .

ثانياً : النظرة الاجتماعية الثقافية للفرد

ثم ظهر تفسير حديث شامل للطبيعة الإنسانية باعتبارها متكاملة لا ثنائية فهي ليست منقسمة إلى جسم وعقل ، وهي ليست شخصية متكونة بعيدا عن البيئة الاجتماعية ، بل نتاج تفاعل مستمر بين الكائن الحي أى تكوينه البيولوجى وبين بيئته الاجتماعية ، ولما كانت البيئة الاجتماعية للانسان متغيرة بتغير الزمان والمكان فإن الطبيعة الإنسانية أيضا تتغير تبعا لتغير تلك العوامل ، الأمر الذى يعطى الإنسان القيادة فى تكوين طبيعته وفى تغيير بيئته الاجتماعية ، ولا يتطلب ذلك سوى بذل جهد من جانبه لتحقيق أهدافه .

واضح أن هذا التفسير قد استفاد من التفسير السابق الذى ينظر إلى الطبيعة الإنسانية نظرة بيولوجية خالصة ، إلا أن هذا التفسير الحديث إم يعتبرها المحدد الوحيد لطبيعة الفرد ، بل أشرك فيها وبدرجة كبرى البيئة الاجتماعية حين اعتبر أن الشخصية تكتسب أثناء التفاعلات الاجتماعية الثقافية وهكذا يكون هذا التفسير قد تخلص من النظر الى الإنسان كحيوان طبيعى (وهى الصفة التى ظهرت فى التفسيرين السابقين عليه) ، كما أنه تخلص من تفسير طبيعة الانسان على أسس متصلة بعالم غيبى هو عالم المثل (وهى التفسيرات التى سبقت التفسيرين الأخيرين) ، وجاء تفسيراً مرتبطاً بعالم الواقع الذى يعيشه الإنسان .

ورغم اعتراف هذا التفسير بأثر التكوين البيولوجى للفرد فى تحديد طبيعته ، فقد عرف هذا التفسير بالنظرة الاجتماعية الثقافية للفرد . ولم يكن حذف الإشارة الى الجانب البيولوجى تجاهلا أو إنكاراً لأثره ، وانما كان ذلك على أساس أن الاختلافات البيولوجية ذاتها تعبر عن نفسها فى أساليب اجتماعية ثقافية ، وعلى هذا الأساس نفسه يتعذر الفصل بين ما هو فطرى فى طبيعة الانسان وما هو مكتسب .

ومادامت الطبيعة الانسانية للفرد تتأثر فى تكوينها بالبيئة الاجتماعية

الثقافية الى يعيش فيها الفرد ويتفاعل معها ، فإن الطبيعة الانسانية تختلف باختلاف الأفراد نظرا لاختلاف خبراتهم في بيئاتهم الاجتماعية حتى ولو كانت تلك البيئة واحدة . كذلك فان هذه الطبيعة أو الشخصية تختلف باختلاف نمط السلوك الذى يمليه الدور الطبيعى للفرد فى المجتمع كما تختلف باختلاف خصوصيات الثقافة التى يتعرض لها .

ويتفق هذا التفسير الحديث مع ما يراه علم الأحياء من أن احتفاظ الكائن بحياته رهن بأن يكون فعالا حتى يتكيف مع بيئته بالتغيير فيها حيناً وبالتغيير فى نفسه حيناً آخر .

وإذن فالطبيعة الانسانية متغيرة ، وتختلف باختلاف الأفراد ، وتلعب كل من الوراثة والبيئة دورا فى تكوينها .

المفاهيم الأساسية فى كل من النظرتين :

وتحديداً للاختلاف بين النظرة الثنائية والنظرة الاجتماعية الثقافية للطبيعة الإنسانية نوجزها فيما يلى موقف كل منهما وتفسيره للمفاهيم الأساسية :

١ — الخبرة : ترى النظرة الثنائية أنها معرفة جسمية عملية ، لأنها تقوم على اتصال حسى بعالم الواقع ، وهى بالتالى خبرة جزئية ناقصة لا تعين على الوصول إلى يقين .

أما النظرة الاجتماعية الثقافية فتعتبرها أنواعا من التفاعل بين الفرد وبيئته الطبيعية والاجتماعية . والخبرة بهذا المعنى لا يختص بها الإنسان ، فالحيوانات لها أيضا خبراتها ؛ على أن خبرة الإنسان تختلف عن خبرات غيره من الكائنات الحية من حيث أنها خبرة كاملة ، ذلك لأنه يدرك ما يقوم به ، كما يدرك أهدافه ، بالإضافة إلى أنه يحتفظ بآثار هذه الخبرة ليستفيد منها فى خبراته المستقلة .

ولما كانت الخبرة وفق النظرة الاجتماعية الثقافية • تتضمن تفاعلا بين الإنسان والبيئة ، وكان اشتراك العقل في المرور بالخبرة ضروريا لتحقيق هذا التفاعل ، لم تكن هناك خبرة عملية منفصلة عن التفكير ، فالعقل يعطى الخبرة معنى •

والخبرة قد تكون مباشرة • أو غير مباشرة والخبرة المباشرة يمر بها الإنسان مادياً أو نفسياً أو هما معا (١) ، ولهذا كان تأثيرها في النفس عميقا ، والخبرة غير المباشرة تتمثل فيما ينقل إلينا من خبرات غيرنا كما يحدث عند انتقال تراث الجنس البشرى من جيل الى جيل •

والحاجة الى النوعين من الخبرة ماسة ولا غنى عنها • فالخبرة المباشرة أساسية لفهم المعانى والرهوز والتجريدات ، والخبرة غير المباشرة تمدنا بثقافات عصور وأجيال مضت فتوفر علينا البدء من جديد في فهم بيئتنا الطبيعية والاجتماعية وتمكننا من مواصلة البناء والتشيد والتطور • وليس كل الخبرات تربوية ، فالخبرة التربوية هي التي تتصف بالاستمرار ، وتحقق نمو شخصية الانسان وذاتيته في اتجاه يرضى عنه الجميع ، ولهذا فإن الخبرة التي تحقق استمتاعا وقتياً لا يمتد أثره الى المستقبل ، أو التي تحقق كسبا يذهب في الوقت ذاته بأمن صاحبها وطمأنينته ، لا تعتبر خبرة تربوية • فالخبرة التربوية تقوم على أساس خبرات سابقة وتمهيد لخبرات لاحقة ، وترتبط بالسابق واللاحق من الخبرات المتشابهة ، أو هي خبرة واحدة ، ترداد عمقا واتساعا بزيادة خبرات الإنسان في الحياة •

ولما كانت الخبرة التربوية تتضمن تفاعلا بين الانسان وبيئته كان من الضروري لتحقيق التفاعل الكامل بينهما أن تختار الخبرات في ضوء قدرات الفرد واستعداداته وأن تمد البيئة بالظروف التي تعين على إتمام

(١) محمد لبيب التميمي : مقدمة في فلسفة التربية ، مكتبة الانجلو القاهرة ،

هذا التفاعل . ونظرا لاختلاف الافراد فيما بينهم من حيث حاجاتهم واستعداداتهم فإن تفاعل الأفراد المختلفين مع البيئة الواحدة تختلف عناصره كما تختلف نتائجه . وهو أمر جدير بالاعتبار في الموقف التعليمي على أن الموقف التعليمي الذي تتوافر فيه عناصر يستطيع كل فرد أن يجد فيها ما يتفق مع حاجاته واستعداداته لهو أفضل المواقف التعليمية ، إذ أنه يعين على تنمية اتجاهات نفسية ايجابية نحو التعلم وموضوع التعلم . هذا والخبرة الكاملة خبرة شاملة تفيد في تنمية مكونات السلوك المختلفة عند الفرد ، من اتجاهات ، ومعرفة ، ومهارات وغيرها .

٢ - العقل : ترى النظرة الثنائية أنه القانون الذي تخضع له الظواهر الطبيعية . والمعيار الذي يجب على الأعمال الإنسانية أيضا أن تخضع له وهي تضع العقل في مستوى رفيع أعلى من الخبرة وفي غير حاجة اليها . أما النظرة الاجتماعية الثقافية فتعتبر العقل وظيفه ونشاط ينمو في مجال النشاط الجسمي والاجتماعي ، أي أثناء المرور بالخبرة . ويقوم بنشاطه كمجموعة من المعاني المنظمة المتكونة نتيجة لأنشطة سابقة ، ووظيفته اقتراح الحلول المناسبة للتغلب على ما يعترض الفرد من صعوبات في حياته ، وهو ينشأ مع الفرد ويزداد نموا بالخبرة والتجربة .

٣ - المعرفة : ترى النظرة القديمة أن المعرفة التأملية هي التي تتصل باليقين الثابت . وأنها تسمو على المعرفة العملية التي تتصل بالواقع المتغير . والمعرفة البحتة كاملة في ذاتها لا غرض لها ولا غاية ، وهي متعة جمالية لا تبلغها الا بواسطة العقل . أما المعرفة المتعلقة بالجسم واحتياجاته فهي معرفة خسية فاقصة شأنها شأن المعرفة العملية إذ أن كلا منهما له غرض معين .

وترى النظرة الاجتماعية أن العمل هو قلب المعرفة ، والتفاعل بينهما مستمر . وترى أن القوانين والنظريات نشأت من خبرات أى تجارب واسعة للجنس البشرى مع بيئته تطورت الى أفكار ورموز وقوانين ونظريات . كذلك فهي تعتبر المعرفة وسيلة لتوجيه الفرد في حياة الواقع .

٤ - الأفكار والتفكير : ترى النظرة القديمة أن التفكير النظرى يسمو على التجريب ، كما أنها تولى من قيمة الفكرة وتعمل وظيفتها عن العمل ، فهي منفصلة عن الخبرة وسابقة عليها ؛ أما النظرة الحديثة فترى أن الأفكار نتاج تعاملنا مع البيئة وأن صحتها تتضح بأثرها في التغلب على مصاعب الحياة وحل مشكلاتها . كما أنها مرتبطة بالخبرة وغير سابقة عليها . أما التفكير فهو عملية تنظم بها الأشياء والأحداث من جديد بحيث تخدم أغراض الفرد ، ولذا دور هام فيه .

٥ - الذكاء : ترى النظرة الأولى أن الذكاء غطرى متمثل في العقل المرتبط بعالم الروح أو المثل ولا علاقة له بالبيئة أو الخبرة ؛ أما النظرة الثانية فتعتبر الذكاء نام ، وهو قائم على التجارب ، ويكتسبه الإنسان من تفاعله مع بيئته أثناء حياته ، وهو متأثر بعامل موروث .

٦ - التغيير : لم تعترف الفلسفات القديمة بالتغيير الاجتماعى . أما النظرة الاجتماعية فترى أن التغيير قائم وهو ظاهرة اجتماعية صحية ، ومهمة الانسان بالنسبة لذلك التغيير هي مواجهته وتوجيهه لصالحه . أما قوانين الطبيعة فهي ثابتة ومهمتنا أن نعرفها .

٧ - القيم والأخلاق : تفصل النظرة الثنائية بين الانسان وبيئته ، فهي ترى أن القيم العليا مثالية غير مرتبطة بالبيئة ، أما النظرة الاجتماعية الثقافية للطبيعة الإنسانية فترى أن الفضائل والبرذائل أنواع من التكيف الواقعى بين قدرات الفرد وبيئته الخارجية ، وأن الصفة الخلقية تتعلق بنواحي النشاط التي يستطيع الإنسان أن يختار فيها بين بلدين .

٨ - التضمينات التربوية : ترى النظرة الثنائية أن التعلم هو عملية استرجاع العقل للأفكار التي كان يعرفها من قبل في عالم المثل منفصلة عن البيئة التي يعيش فيها ، وهي معرفة لذاتها يحصلها الطفل عن طريق العقل فقط ، ولهذا يتضمن المنهج الموضوعات التي تدخل في نطاق التأمل العقلى دون نظر الى الظروف الاجتماعية القائمة . والذكاء

هنا نظر مرتبط بالعقل أو الروح ومنفصل عن البيئة ، ولهذا لا حيلة للتربية للتعديل في قدرة الإنسان العقلية .

أما التضمينات التربوية للنظرة الاجتماعية الثقافية فهي متشعبة نوجزها فيما يلي :

— التعليم عملية وظيفية تساعد على تجدد الحياة وتنميتها ويتم عن طريق الخبرات التي يمر بها الكائن الحي ، والتي هي نتاج التفاعل بين خصائصه الموروثة وبيئته التي يعيش فيها .

— يشترك الفرد ككل في عملية التعلم .

— يتضمن المنهج كل الخبرات التي تؤثر في شخصية الفرد ، وتعتبر البيئة عاملا أساسيا في تكوين طبيعة الفرد .

— الاهتمام بالنشاط الحر والتعبير عن الذات كوسيلة للتعلم ، أى النمو الذى يتم عن طريق الخبرة الحية ، واستغلال فرص الحياة السانحة أمام الفرد ، واتخاذ المعارف والمهارات وسائل لا غايات ، للتعرف على العالم الدائم المتطور وترقيته .

— الاهتمام وبذل الجهد عنصران هامين في عملية التعلم ويرتبطان بالهدف .

— لما كان الذكاء ينمو مرتبطا بالعقل النلمى ، فان قيمة اختبارات الذكاء هي تحديد مستوى الذكاء في وقت بعينه ، ولا يجوز الاعتماد عليها في تحديد نسبة الذكاء مستقبلا . فالعامل الوراثى لا يضع وحده الحدود النهائية لامكانيات النمو ، ذلك ان البيئة تشترك مع الجينات في وضع تلك الحدود النهائية .

وفي ختام حديثنا عن الطبيعة الإنسانية ، نود أن نبرز أنه في ضوء النظرة الاجتماعية الثقافية ، يحيا الإنسان مفاعلا مع بيئته الاجتماعية ، وعن طريق هذا التفاعل الذى يتضمن التأثير والتأثر بالبيئة ، يكتسب الفرد طبيعته أو شخصيته التى تزداد نموها كلما ازداد هذا التفاعل عمقا . ونمو الشخصية هو في عبارة أخرى ازدياد احساس الفرد بذاته نتيجة للتفاعل بين الفرد وبيئته الاجتماعية . ويطلق على عملية التفاعل هذه اسم « التنشئة الاجتماعية (١) » أو « التطبيع الاجتماعى » (٢) ولما كان سلوك الأفراد انعكاسا لثقافتهم كانت عملية التفاعل الاجتماعى ، أو التنشئة الاجتماعية عملية تنشئة أو تفاعل ثقافى ، والثقافة هنا هى ثقافة مجتمع بعينه يحملها أفراد ذلك المجتمع .

على أن ثقافة المجتمع لا تفرض سلوكا واحدا محددًا على جميع الأفراد ، بل إنها توفر فرصا متنوعة للفرد يستفيد منها ، وتقترح أساليب مختلفة يختار من بينها ما يتلائم مع خصائصه الجسمية والنفسية . ولهذا نجد أن استجابات الأفراد مختلفة بالنسبة للموقف الواحد ، كما أن ما يتعلمه فرد من خبرة معينة يختلف عما يتعلمه فرد آخر من الخبرة ذاتها .

كذلك فإن استجابات الفرد لموقف معين ، تختلف بمرور الزمن رغم تماثل المواقف ، وذلك نتيجة للتغيرات الجسمية والنفسية التى تحدث للفرد بفعل التفاعل الاجتماعى أى الثقافى الذى مر به . وفى عملية التنشئة الاجتماعية ترى للمجتمع مطالب يتوقع من أفرادها الالتزام بها ، والقدرة على أدائها فى مراحل معينة من نموهم ، ويطلق على هذه المطالب اسم « المطالب التطورية » نظرا لأنها متطورة تبعا لتطور نمو الفرد . ومن بين هذه المطالب ما يتصل بضبط الفرد لحاجته البيولوجية ، والالتزام

(١) محمد الهادى عفيفى : التربية والتغير الثقافى ، الانجلو سنة ١٩٦٣ .

(٢) محمد لبيب التميمى : الاسس الاجتماعية للتربية ، الانجلو سنة ١٩٦٥ ،

بمعايير اجتماعية معينة . والقيام بأدوار اجتماعية مختلفة . واكتساب مهارات متنوعة .

والتنشئة الاجتماعية قد تحدث عوضا أثناء الاتصال العابر للفرد بغيره من أفراد المجتمع . وقد تكون في صورة منظمة ، وهو الدور الذي تقوم به المؤسسات الاجتماعية المختلفة . وترداد هذه العملية فنا وتعقيدا كلما ارتفعت ثقافة المجتمع .